الثـــأر

قصة بقلم جمال عبد الملاك

سبع سنوات وانا اجتر آلالم ، سبع سنوات كل دقيقة منهـا كانت حمى في الدم وسما في النخاع اكز فيها على اسناني واكظم الغيظ ، وافكر وادبر واسكت .. كل دقيقة كنت انتظر فيها هذه اللحظة وانا مشحون بالتوتر .. سأعود .. سأعود .. كانت الطائرة قد تركت وراءها احراش اوغندا وبحيراتها وجبالها وها هي تدخـل الصحراء والنيل خط رفيع تحتها يلمع في نور الشمس الغاربة ، بعد قليل نهبط في المطار ، وادخل المدينة التي تركتها منذ سنوات ..

ها انذا اعود ولا اعود ، اعود ليوم واحد فقط ، ولا احد يعلم ماذا سيحدث بعد ذلك ، وعندما اختلجت الطائرة وآختنق صفيرها اختلج قلبي معها ..

* * *

سار كل شيء على ما يرام ، وضعت القبعة على رأسي وابتسمت لضابط الجوازات ، تحدث معي بالعربية فنظرت اليه متصنعا عـدم الفهم ، قال : اول مرة لك تزور فيها الخرطوم ؟.. قلت بانكليزية تشوبها لكنة الهنود : (يبس ..) ، قال : مرحبا بك .. وقلت متابعا الحديث باللهجة التي تدربت عليها سبع سنوات : « هندي ـ سوداني بهاي بهاي » اي نحن اخوان ... وانبسطت اسارير الرجل واعطاني جواز السفر مختوما والشهادة الصحية .. كل شيء سيسير على ما يرام .. سبع سنوات وانا اتدرب على هذا الدور ..

* * *

ابي كان صائغا يبيع الذهب ويشتريه ويصوغه ، وكان له اصدقاء وزبائن وعملاء من الهنود في امدرمان ، وكنت وانا صغير العب مع اولادهم ، وازورهم في بيوتهم وآكل الطعام النباتي والارز بالكارى، وتعلمت في سن مبكرة التحية بضم اليدين : « ناماستيه .. آييـه آييه » .. وكنت اعود من عندهم بقناني العطور وبعلامة (التيلاك) وهي نقطة صغيرة حمراء فوق الجبهة .. وعندما كبرت كان اصدقائي من الهنود يظنـون انني من ابناء مدراس الذيـن هاجروا لشرق افريقيا، وقد حفظت بعض الاغاني الهندية التي تروي عذاب الهجر بعد (المحبت) .. عندما مات ابي وورثت منه الدكان ولم اعرف كيف اديره ، عرضت على صديق ابي الهندي العجوز (راجندرا) ان يشتريه او يشاركني فيه ولكنه قال انه مسافر ليلحق بقريب له في اوغندا ، فقد ولت ايام الرخاء ..

كان ذلك قبل ان التقي بالحاج .. لا اذكر الان كيف التقيت به ، ولكني اذكر انني وجدته بجانبي في جنازة العجوز ، وكان بجواري عندما اغمي عليّ ومرضت بعد ايام البكاء القاسية .. الحاج كـان دائما بجواري وذكرني باننا كنا في فصل واحد في المدرسة فـي كوستي .. وكنا في فريق واحد للكرة ، تذكرته الان ، كان يجلس في اول مقعد على اليمين ويقفز ليحضر كوب ماء مثلج لمدرس العربي وكنت اجلس في آخر الفصل ولم احتك به في تلك الايام ، ولكنه قال انه تتبع شجرة العائلة فوجد اننا اقرباء ، وطيلة ايام (الفراش) بعد وفاة ابي جلس بجواري على الحصير ، ونام معي على الارض وحاول ان يسري عني ..

وعندما سافر (راجندرا) العجـوز ، الح لي انه يستطيع ان يدير الدكان ويحتفظ بالزبائن فهو تاجر ، ولو انه كان يعمل في الاقاليم ، قال لي : « لا تضح بوظيفتك .. خسارة .. اما الدكان فاعتمد على الله وعلي .. ولا تخش شيئا ، أليس المحل مؤمنا عليه ؟ » .. قلت: نعم .. مؤمن عليه .. فالذهب يغري من قديم الزمان ذوي النفوس الشريـرة ..

واستلم الحاج الدكان .. وعمل بدأب .. كانت بيننا شراكـة هو بجهوده وانا برأس المال الذي ورثته عن ابي ، وكان في الدكان ودائع قيمتهـا بضعـة الاف .. واصبح الحاج هو كل شيء .. ولم المس فيـه ما يشيـر الشك .. شيء واحد اثار غضبي ذات مرة ، عندما حضرت عائشة لتختار بعض الاساور من المحل ، لقـد تطرف معهـا اكثر مما ينبغي ونظـر اليهـا بعينيه العسليتيـن نظرات مفترسـة ولم يغض الطرف مع اننـي كنت معهـا .. بل اذكـر انه قال لـي فيمـا بعد.. (الم يكـن من الافضل ان تختار صبية من اسرة ثرية ؟) ولكنـي اوقفتـه عنـد حده ..

* * *

سرت في الشوارع التي كنت اعرفهـا تماما ، هنا حفيت اقدامي من البيت للمدرسة ومن البيت للدكـان ومن الدكان للسوق .. قـال سائق :« يلزمك تاكسي يا خواجة ؟ » .. قلـت : « نـو » .. وابتسمت رغما عني .. وعندمـا حل الظلام واضيئت الانوار اضطررت لخلع النظارة السوداء ، عـدت مرة اخرى عبدالرحمن ود عثمـان رحمة الله الصائغ الذي تعرفه النساء المخضبات بالحناء والصندلية.. سرت على قدمي وسألني واحـد عن الطريق للسينمـا الوطنية ، قلـت

له بلهجة اولاد البلد : اتجه جنوبا ثم غربا .. فشكرني وانصرف .. قد يكون رجل بوليس ؟! ولكن كيف يعرفني ؟.. عندي باسبور في الفندق يقول ان اسمي « راج آناند مورارجي » ، وانني من مواليد قرية (واندي واش) من اعمال مقاطعة « تاميز هاجام » في الهند قرب مدراس ، لقد دفعت ثروة في هذا الجواز ، وكان صاحبه قد مات باسهال حاد يشبه الكوليرا بعد أن عاد من زيارة قريته .. ولم يترك لارملته شيئا سوى هذا الجواز فباعته لي ، كان راج يعمل كاتبا في محلات اخوان راجندرا في كمبالا ، وعندما تركت السودان ذهبت الى راجندرا العجوز صديق والدي فالحقني بعمل معهم ، ومنذ دخلت المحل لفت نظري راج اناند مورارجي ، كانت قامته هي نفس قامتي تقريبا ولونه يشبه لوني ، نفس اللون الاسمر النحاسي ولم تكن به علامات مميزة ، وكان صموتا نحيفا يعمل كثيرا ولا يتكلم الا نادرا ، حاولت مرة ان اساومه : ان يعطيني جواز سفره مقابل مبلغ من المال ثم يدعي انه فقد منه ويستخرج بدل فاقد ، نظر الي مستريبا ولم يرد ، ولكنه ذات يوم قال لي : مستر عبدالرحمن هل ارتكبت جريمة في بلدك ؟.. قلت له ضاحكا لاخفي اضطرابي : « كيف ؟ » .. قال بحكمة هندية اصيلة : « آه .. تبدو دائما قلقا مشغولا ، تنظر وراءك ،ونادرا ما تتحدث عن بلدك ، الغريب يحب دائما ان يتحدث عن وطنه ولو كان قطعة من جهنم ويزهو بما لديه هناك .. » فقلت فمي بعدها وتحاشيته .. ولكني زرته اثناء مرضه، ويبدو انه اوصى زوجته قبل ان تحين ساعته بان تعقد معي صفقة، فقد جاءت الي بعد وفاته وسلمتني الجواز في مظروف واعطيتها مبلغا ارضاها .. لقد ظل راج حكيما حتى في لحظاته الاخيرة.. فرحت بالباسبور كما يفرح الاعزل بسلاح يدفع في يده وهو يجتاز الغابة في الليل ...

اذن سوف اعود .. سوف اعود .. سوف اسوي الحساب القديم، ووضعت خطة العمل ، صادقت هنودا من مدراس ومن القرى المحيطة بها ، قرأت كل ما كتب عن هذه المنطقة ، ثم اخذت اجازة وزرت مدراس على الساحل الشرقي الجنوبي للهند ، واكتشفت ان الهنود يتفاهمون معا بالانكليزية لان عندهم لهجات ولغات عديدة ، وزعمت للطالب الذي جلس امامي في القطار ان والدي مهاجر اصله من قرية بجوار مدراس ، ولكني نشأت في شرق افريقيا ودرست في مدارس الارساليات ولذا فقد نسيت لغة موطني ، ووجدت ان معلوماتي عن المنطقة اكثر من معلوماته ، وعندما عدت الى كمبالا كان شركائي يضحكون ، وقال لي راجندرا العجوز انني لو لم اكن تاجرا لكنت ممثلا ، راجندرا العجوز كان يعرف الحقيقة .. قال لي : يا عبد الرحمن انت فتى طيب ، تزوج واهدأ .. النقود لا تفيد الرجل الوحيد .. ما رأيك في (فيرا) الحسناء التي جاءت تشتري قرطا صباح امس ؟...

ولكني كنت ادخر النقود للرحلة الكبرى ، الماضي كان يلح علي كالمرض المزمن .. اما النساء فلا شأن لي بهن ،هناك بعيدا .. في بيت مطلي بالجير الابيض تركت عائشة .. في الليل كنت اخرج الى شاطىء البحيرة واحلم بطيفها البعيد ، عائشة ؟ ماذا حدث لها؟

* * *

وقفت الاشجار ساكنة واختنقت انفاس المساء وغمرني العرق اللزج .. كانت السحب تزحف في صمت عبر الافق .. ستمطر بلا ريب فنحن في الخريف .. السماء ايضا تكره الخيانة وتهييء النجاح لخطتي .. وعندما سقط المطر وتشربته التربة الساخنة فاضت الدموع في عيوني ، اندفع الناس يحتمون من اسياخ المطر .. ولكني بقيت تحت السماء المفتوحة ، وددت لو اركع واغترف حفنة من التراب المبتل .. رفعت راسي للسماء ، سوف يستمر المطر ثم يصفو الجو ويبرد وسوف ينام الناس في داخل غرفهم او في (الفراندات) ، وهذا ما اريده تماما . .كانت السيارات تسرع تحت المطر ، والناس ينظرون نحوي باستغراب بعد أن ابتلت ملابسي ولصقت بجسدي ، وتحسست جيبي فوجدت المسدس يكظ منه ، عدت الى الفندق ، ومسحت على المسدس برفق .. آن لم يكن بالمسدس فبالسكين الذي ظللت احد شفريه سنوات ، هذا السلاح العزيز سيصل الليلة الى قلب الوغد ويرتوي من دمه ..

* * *

معي ٦ طلقات ، طلقة من اجل خيانة الصداقة والعيش والملح، طلقة من اجل الطمع والكذب ، طلقة اخرى مكافأة على الثقة الضائعة، طلقة من اجل عذاب الغربة والسهد .. سوف احتفظ بطلقة لنفسي لو سارت الامور على غير ما اشتهي .. انا الذي استحق كل عقاب، انا كنت مغفلا سهل الانقياد ، طيبا الى درجة الغفلة ، طالما قال لي راجندرا العجوز « عيبك انك عاطفي ، تثق بالناس بسرعة فتغريهم بخداعك ثم تبحث عن طريقة لمعاقبتهم بعد ذلك ، انت في غنى عن ذلك لو تعاملت معهم بحذر منذ البداية ..» .

هكذا انا ولكن لا حيلة لي في ذلك .. بل هكذا كنت .. عندما قال لي الحاج وصوته يفح كالافعى ويده على كتفي ، اسمع سوف يحجزون علينا ، وستكون فضيحة وخسارة كبرى .. سوف نتسول .. علينا ديون بالالاف ، لا اخفي عليك انني المسئول ، فقد حاولت استثمار اموالك في تجارة الحبوب ، ثم فاجاني هذا الكساد ..سوف ارد لك كل مليم بعد ان نجتاز هذه المحنة » .

سألته : كيف .. يا حاج .. كيف ؟..

قال : « اسمع .. الا تريد السفر ؟ ،ان اعصابك مضطربة ،سافر ودع لي الامر .. اليس الدكان مؤمنا عليه ؟ ، سوف احرقه لو لزم ذلك ولا يعلن افلاسنا .. آنا سأتحمل كل المسئولية ..

أشفقت عليه .. ولكنه اصر ان أسافر ورتب لي اجراءات السفر ... جاءني قبيل يوم السفر وقال : اعطني توكيلا لاتصرف باسمك في بعض الديون .. اعطيته توكيلا شرعيا . .قلت له : لا تفكر في حرق الدكان ، انها مجازفة .. قال : نعم لقد فكرت في الامر ، عندي فكرة احسن الا تستطيع ان تمر على الدكان قبل سفرك ؟..

شيئا فشيئا طرح الفكرة العجيبة .. اقترح أن اذهب الى الدكان في الليل ، وسيكون معي المفتاح ، قال : افتح الخزانة واحمل كل ما فيها ، واحدث بعض الخدوش والفوضى ، ثم انصرف وسافر.. سوف اقول ان اللصوص سطوا على المحل ، وستدفع شركة التأمين ..»

قلت له : انها سرقة ..

قال : كلا .. فالانسان لا يسرق نفسه .. طائرتك تقوم في الفجر وقد دبرت لك ان تخرج بحقائبك بلا تفتيش .. واترك لي الباقي .. هناك ودائع في الخزانة قيمتها عشرة الاف جنيه »..

ذهبت للدكان واخذت ما فيها من ودائع ولم يفتح احد حقائبي

في المطار ، كان الحاج يعرف من اين تؤكل الكتف ، ليس فقط الكتف بل والجسم كله .. وعندما فتحت الحقيبة في اوغندا حملت ما بها من ذهب الى راجندرا انتجوز .. نظر الي مليا ..وقال: خدعوك هذا نحاس مطلى بقشرة من الذهب لا يساوي شيئا .. ممن اشتريته ؟ »

نعم اشتريته بعمري كله هذا الذهب الزائف .. ثم كانت الكارثة الكبرى عندما علمت ان الحاج ابلغ البوليس انني سرقت محتويات الدكان وهربت بها للخارج .. وانني حرضته على احراق المحل لاخفاء معالم الجريمة .. الكلب ..

مرضت .. مرضت شهورا بالحقد الذي يعتمل في نفسي كالسم .. صرت مطاردا ومنفيا ، وفقدت كل شيء في غمضة عين .. فكرت ان اعود واشرح قضيتي ، اني لم اسرق شيئا غير ذهب مغشوش .. ولكن من سيصدقني ؟ لو عدت فسوف ازج في السجن على الفور ولن يستمع احد لقصتي .. في الحقيقة لم افكر في العودة الا للثار لم ابحث عن طريقة لتبرئة نفسي بقدر ما وضعت خطة طويلة المدى للانتقام من الوغد الذي وضعني فيهذا المأزق ..

* * *

في الطريق دارت في ذهني كل الصور القديمة ، كنت احس حيوية دافقة كأني امر بفترة مراهقة جديدة ، لا شيء يحرك عناصر الحياة مثل حب عظيم .. او حقد عظيم .. الحقد هو محرك التاريخ، وشعرت فجأة اني جوعان .. دخلت محلا يبيع الساندوتشات صاح واحد من خلفي : (عبدالرحمن ..) فالتفت بالرغم مني، ثم استدرت بسرعة ، شخص ما زال يذكرني .. جذبني رجل بدين في جلباب ناصع وعمامة كبيرة وهو يقول : « لم ارك منذ توفي والدك . .هل كنت في الجنوب ؟.. عرفته على الفور، الحاج خليل .. صاحب ورشة السيارات في كوستي .. ربما لم يسمع شيئا عن الحادث ... هل انعب معه لعبة الاعجمي ؟. انا لست عبدالرحمن .. انا اناند موراجي من مدراس .. ولكنه كان يقول :« حملتك وانت طفل وها انت لا تعرفني » ابتسمت في وجهه ببلاهة مصطنعة وهززت يده وقلت بالانكليزية : اناند موراجي من مدراس » .. ربت على كتفي وقال ضاحكا : « سكران .. تماما مثل المرحوم .. كان رحمه الله يحب المرح » .. وخرج يدق كفا بكف .. خرجت مسرعا وركبت سيارة اجرة وقلت للسائق : اذهب بي الى اي مكان .. قال : البقرن ؟ .. قلت : اي مكان ..

نزلت بجوار شاطىء النيل ، كان الهواء صافيا بعد المطر .. دهشت لفكرة انني في بلدي باذن اقامة لفترة محدودة .. ضيف لفترة بعدها اطرد طردا ، لقد جئت لمهمة محددة ، الانتقام من الحاج، السرعة واجبة، لا بد ان يدفع حياته ثمنا لما فعله بي، ان وقتي ضيق ، هذا السرطان الذي يقتات من عقلي ودمي سوف اقتلعه اقتلاعا وبعدها سانام اسبوعا . .لا تؤجل عمل اليوم الى غد ..

* * *

سرت حتى وصلت الى البيت الذي كان بيتي ذات يوم ، لا بد ان الوغد قد احتله الان ، كان النور مضاء ، درت حول المكان كما يدور اللص ، وراء الباب الحديدي الصدىء يوجد الديوان ، ثم « البرندة » وغرفة النوم والمطبخ والحديقة ، وباب الحريم ما زال مسنودا بلا ريب بعصا من الخلف وبجواره عمود يحمل اسلاك الكهرباء .. ولكن اين عائشة ؟، هل تزوجت .. سافرت ؟

سوف يجيب الوغد عن كل شيء وهو يرتعد . .انا لم اشهد القتل الا في السينما ، لا بد ان يكون في الواقع شيئا رهيبا، ولكن بعض الناس كالحشرات السامة يمكن ان تدوسها بلا تأنيب ..ان المجرم يجب ان يلقى جزاء رادعا ، وليس مثل الظلم جريمة ، انه يظن انه فاز وهو الان يستمع بثمار سرقته آمنا مطمئنا بعد ان لوث سمعتي وورثني حيا .. ولكن العقاب في الطريق ...

ساد انكون هدوء شامل بينما هدرت في اذني قطارات تعبر انفاقا مظلمة .. ثم تملكني تحفز صلب مثل طبيب يستعد لازالة ورم صديدي يرهق مريضا عزيزا ..

لو انحنى وقبل قدمي لاغفر عنه ؟.. ولو صرخت عائشة التي استولى عليها ضمن متاع البيت ؟..

كلا ... كلا .. لا مكان للرحمة ..

كان الحديد دافئا في يدي .. ربما يربون كلابا .. ولكني تذكرت ان الحاج يصلي بانتظام والكلاب تجلب النجاسة ..

ما زلت شابا يا عبدالرحمن ، اعتمدت على عمود النور بجوار السور وبفضله صرت في قلب البيت .. هكذا كنت افعل وانا تلميذ عندما اعود متأخرا من السينما ، بيتي ادخله كاللص ..

قبل ان تهب عائشة مذعورة صارخة كنت فوق رأسها .. لكزتها برفق وسألتها وهي نصف نائمة : « قومي ،اين يرقد الحاج »؟

قالت وهي تظن نفسها في حلم : « الحاج .. مات منذ سنتين، كان مريضا بالسرطان » .

الخرطوم

جمال عبدالملك

دراســـات ادبيـة

من منشورات دار الآداب

مذكرات طه حسين	د . طه حسين	بين آدم وحواء	د . زكي مبارك
من ادبنا المعاصر	« «	التكسب بالشعر	د . جلال الخياط
تجديد رسالة الغفران	خليل الهنداوي	شخصيات من ادب المقاومة	سامي خشبة
الادب المسؤول	رئيف خوري	سيمون دو بفوار اومشروع الحياة	فرانسيس جانسون
اصوات غاضبة في الادب والنقد	رجاء النقاش	كامو والتمرد	لدولوبيه
وتبقى الكلمة	صلاح عبدالصبور	بابا همنغواي	أ . ا . هوتشنر